الحروب الصليبية وأثرها فى العالم الإسلامى

للدكتور عبد اللطيف حمزة

قيل فى وصف العصور الوسطى أنها عصور (تيوقراطية) أى دينية . ومن أجل ذلك لم يكن بد من وقوع الصراع الهائل بين العقيدتين المسيحية والإسلامية . وشاء القدر أن يكون أشد المعارك خطراً بينهما ما وقع فى فلسطين وأن تدوم هذه المعارك الطاحنة قرنين من الزمان ، أعنى من سنة ٤٩٠ — ٦٩٠ للهجرة ، وسنة ١٠٩٦ — ١٢٩١ للميلاد .

وتعتبر الحروب الصليبية — من وجهة النظر الأوروبية — بروزاً للغرب المسيحى فى الشرق الإسلامى . وقد اقترن هذا البروز بظهور مراكز تجارية للأوروبيين فى الموانى السورية ، ومراكز تبشيرية لرجال الدين يبشرون فيها بالمسيحية .

أما الشرقيون فينظرون إلى هذه الحروب على أنها اعتداء من الغرب على الشرق ، وبسببها كان المسلمون ينسون إلى حد ما جميع الفروق المذهبية بينهم فى ذلك الوقت مستجيبين فى ذلك إلى العاطفة الدينية العليا ، وهى عاطفة المسلمين — شيعة وسنيين — ضد المسيحيين أتباع للكنيسة الشرقية أو الكنيسة الغربية .

* * *

أجل — نجحت (الحرب الصليبية الأولى) فى تأسيس دولة لاتينية من إمارات : الرها ، وأنطاكية ، وطرابلس ، وبيت المقدس . وبدت هذه الدولة الصليبية وسط الممالك الشرقية الإسلامية أشبه شىء بالرقعة السوداء فى الثوب الأبيض . وبقيت هذه الرقعة لاصقة بهذا الثوب حتى انتزعها المسلمون انتزاعاً على أيدى نفر من ملوكهم وأمرائهم ؛ نخص بالذكر منهم ثلاثة وهم : عماد الدين زنكى ، ونور الدين محمود المعروف بالشهيد ، وصلاح الدين الأيوبى .

ذلك أن مركز المقاومة الإسلاميـة ضد الخطر الصليبى إنما بدأ فى (الموصل) حيث ظهر الأتابك زنكى على أنقاض دولة السلاجقة واستولى من اللاتين على أولى إماراتهم وهى الرها .

ثم انتقل مركز المقاومة إلى (دمشق) وحاكمها نور الدين محمود . وعلى أيامه أتت (الحملة الصليبية الثانية) يقودها لويس السابع ملك فرنسا ، وكنراد الثالث ملك ألمانيا . وأغارت الحملة على دمشق وحلب ثم ردهم (الشهيد) منهزمين ، واسترد فوق ذلك مدناً كانت بأيدى الفرنجة .

وأخيراً انتقل مركز المقاومة إلى (مصر) وذلك منذ نجح صلاح الدين وعمه أسد الدين شيركوه فى انتزاع هذه البلاد من يد العاضد الفاطمى وردها إلى الخليفة العباسى . ثم ما زال صلاح الدين بالفرنج المقيمين بالمشرق حتى كسرهم كسرة حاسمة فى حطين . ويومئذ هاج المسيحيون فى أوروبا ، وأتوا لملاقاة صلاح الدين فى (حملة صليبية ثالثـــة) لم تستطع أن تغير شيئاً من الموقف ولا استطاعت أن تسترد من المسلمين بيت المقدس .

ومنذ ذلك الوقت والحروب الصليبية نفسها تنشب فى كل مكان إلا فى فلسطين . فهى حيناً تيمم وجهها شطر الديار المصرية حيث ملوك الدولة الأيوبية ، كما رأينا ذلك فى الحملة التى أتت إلى مصر بعد وفاة صلاح الدين ؛ وهى (الحملة الصليبية الرابعة) . وهى حيناً تتجه شطر (القسطنطينية) كما حدث ذلك فى (الحملة الصليبية الخامسة) . وهى فى مرة ثالثة تعود إلى مصر ، وتختار لها ثغر (دمياط) قفل الديار المصرية فى ذلك الوقت ؛ كما حدث هذا فى حملتين متتاليتين هما (الحملة الصليبية السادسة) و (الحملة الصليبية السابعة) . والعجيب أنه بدا للويس التاسع فى هذه الحملة الأخيرة ، وبعد خروجه من سجن المنصورة أن يتجه إلى (تونس) ، ولكن حظه فيها لم يكن أسعد من حظه فى مصر .

معنى ذلك أن أوروبا سلكت فى العصور الوسطى كل الطرق الممكنة للتغلب على الشرق الإسلامى فلم تستطع . وما إن أتى عام ٦٩٠هـ حتى استولى المماليك على (عكا) وطردوا بذلك آخر صليبى من الساحل الشرقى للبحر

الأبيض المتوسط . ومنذ يومئذ والصليبيون يعيشون فى الجزر التى احتلوها من قبل ؛ مثل جزيرة (قبرص) . وقد استولى الإنجليز عليها منذ الحرب الصليبية الثالثة ، وجزيرة (رودس) وقد احتلها فرسان الاسبتارية فى بعض تلك الحروب ، وجزيرة (كريت) التى استولى عليها البنادقة .

تلك إذن قصة الحروب الصليبية التى انتصر فيها الشرق على الغرب ، وتركت آثاراً واضحة فى كل من الشرق والغرب . وقد تحدث الأستاذ باركر Barker فى فصل من كتاب تراث الإسلام عن أثر هذه الحروب فى الغرب المسيحى . وبقى علينا أن نتحدث عن أثرها فى الشرق الإسلامى .

* * *

والحق أننا لا نكاد نعرف حركة من حركات التاريخ تركت آثاراً قوية كتلك التى تركتها الحروب الصليبية . وقد بدا هذا الأثر قوياً فى الشرق الإسلامى من حيث السياسة والحرب ، ومن حيث العلم والأدب واللغة والفن ومن حيث المجتمع والأخلاق ، ومن حيث المال والاقتصاد . و سنتحدث عن الجانب الحسن من هذه الآثار ، ثم نتبع ذلك بالحديث عن الجانب القبيح منها . ولا مفر لنا من توخى الإيجاز التام فى هذا الحديث .

* * *

وخليق بنا عندما نصف الجوانب الطيبة أن نشيد هنا بذكر البطلين العظيمين نور الدين وصلاح الدين ، وقد رسم كل منهما للمسلمين المثل الأعلى فى الجهاد والفروسية ، بل المثل الأعلى لأهم ما فى الطباع الشرقية الإسلامية . وهى طباع وأخلاق تذكرنا أحياناً بالخلفاء الراشدين ، ومن تبعهم باحسان كعمر بن عبد العزيز . وقد استطاع كل من هذين الرجلين أن يهيىء العالم الإسلامى لقبول فكرة الحرب . وسلك كل منهما فى سبيل ذلك طرقاً من أهمها التعليم لتصحيح عقائد المسلمين ، ولبث فكرة الجهاد ضد الصليبيين ؛ وذلك عن طريق (المدارس) التى كثرت كثرة رائعة فى كل بيئة من البيئات الإسلامية الظاهرة ، وعن طريق (الخوانق) التى يجتمع فيها المتصوفة لعبادة الله ، والدعاء للمسلمين بأن ينصرهم الله . وقد كان هذا الأمير

الأخير شيئاً عظيما فى نظر المسلمين منذ عهد نور الدين . حتى قيل لهذا الأمير يوماً ما : إن لك فى بلادك إدرارات كثيرة ، وصـلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفيـة ، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل . فغضب من هذا وقال : والله إنى لأرجو النصر بأولئك ، فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم فى فراشى بسهام لا تخطىء ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عنى إلا إذا رآنى بسهام قد تخطىء وقد تصيب ؟ .

وهكذا تحول العالم الإسلامى الشرقى كله إلى ميدان لهـذه الحروب . واشترك فى الترويج لها يومئذ الملوك والأمراء ، والعلماء والفقهاء ، والمتصوفة والأدباء ؛ كل بطريقته وفى الحدود التى رسمتها له طبيعته ومهنته . وبلغ من قوة الروح المعنوى عند المسلمين فى ذلك الحين أن كان من علماء الدين من غامر بنفسه فى هذه الحروب ، كما فعل ذلك (الفقيه عيسى الهكارى) وكثيرون غيره . وهكذا شهدت الحروب الصليبية الفقيه المقاتل ، كما شهدت القسيس المحارب . وكان ذلك مما امتازت به الحروب فى القرون الوسطى . وأعود فأتحدث عن العمل الذى قامت به كل طائفة من الطوائف السابقة على حدة .

فأما طائفة (العلماء) فكان عليها أن تغذى الجانب الإدراكى فى نفس المقاتل العربى فى تلك الفترة . فقد كان على العربى الذى طلب إليه أن يجاهد فى سبيل الوطن الإسلامى أن يعرف أنه إنما يجاهد فى سبيل الدين ، ومن أجل وطن عظيم هو الوطن الذى منه ما هو مسرى للنبوة ومعراج للملائكة ، ومنه ما ذكر مراراً فى الكتب المقدسة ، فما أخلقه إذن بتضحية المقاتل العربى فى كل بقعة من بقاع العالم الإسلامى . وهذا هو السبب فى كثرة ما ظهر يومئذ من الكتب فى (فضائل البلاد الإسلامية) . فكتب فى فضائل الشام ، وكتب فى فضائل مصر ، وكتب فى فضائل بيت المقدس ونحو ذلك . بل هذا هو السبب كذلك فى كثرة ما ظهر من الكتب فى موضوع (الجهاد والفروسية) . وفيها — كما فى الكتب المتقدمة — كثير من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والسير التاريخية ما يكفى لحض المسلمين على الاستشهاد . وبلغ من حب صلاح الدين للجهـاد أن جمع له بهاء الدين بن شداد طائفة من الأحاديث

النبوية فى هذا المعنى ، كانت تقرأ له فى الميدان ، وهو راكب على جواده ، والمعركة دائرة بينه وبين الفرنجة .

وأما (الشعراء والخطباء) فكان عليهم تغذية الجانب الوجدانى من نفس المقاتل العربى ، بما أنشأوه من القصائد الشعرية ، والخطب الحماسية ، والمجالس القصصية . وقد حفظ لنا التاريخ قدراً عظيما من الشعر خاصة . وحسبنا هنا أن نشير إلى أشعار ابن منير ، وابن القيسرانى ، وأسامة بن منقذ ، والمهذب بن الزبير ، وابن أسعد الموصلى ، والعماد الأصفهانى (من شعراء الدولة النورية) ، وأشعار أسامة بن منقذ (مرة أخرى) وابن أسعد الموصلى ، والعماد الأصفهانى ، وابن جبير وابن التعاويذى ، وابن الساعاتى ، وابن سناء الملك ، والجوائى المصرى (من شعراء الدولة الصلاحية) ، وأشعار البهاء زهير ، وجمال الدين بن مطروح ، وكمال الدين بن النبيه ، وابن عنين (من شعراء الملوك الأيوبية) .

وخليق بنا أن نلفت نظر القارىء هنا إلى الشعر الذى قيل فى أيام مشهورة من أيام تلك الحروب ، كيوم حطين ، ويوم دمياط ، ويوم المنصورة ونأسف الآن لأنه ليس لدينا متسع فى هذا المكان لذكر شىء من هذه الأشعار التى تمتاز بالقوة والحق والجمال ، ولها بسبب ذلك مكان ممتاز فى تاريخ الشعر العربى كله .

فاذا تركنا الشعر إلى النثر وجدناه يقوم بتسجيل الحوادث السياسية والوقائع الحربية ، وإبلاغها إلى مقام الخلافة العباسية ، وعجبنا كيف روعى فى هذا النثر الرسمى من الأناقة الفنية ما سما به إلى مرتبة من الفن لم يستطع أن يرقى إليها الشعر . وتكفينا الإشارة هنا إلى نثر القاضى الفاضل ، والعماد الأصفهانى ، وابن الأثير الجزرى لنرى أن الجهد الفنى الذى بذل فى كتابة الرسائل الديوانية لا يمكن أن يقاس به الجهد الفنى الذى بذل فى نظم القصيدة الشعرية .

وهذا كله من حيث النثر الرسمى . أما النثر العلمى فمنه ما كتبت به كتب (التاريخ) ومنه ما كتبت به كتب (الجغرافيا) . وقد أصاب كلا من هذين العلمين من التطور ما يتفق وعصر الحروب الصليبية .

obeikandl.com

ففى (التاريخ) كثرت كتب السيرة خاصة : كسيرة أسامه بن منقذ وقد كتبها هذا الشيخ السورى بنفسه ، وكتاريخ الأتابكة الذى كتبه ابن الأثير كما نعرف ، وكسيرة صلاح الدين الأيوبى ، وهى من تأليف القاضى بهاء الدين بن شداد الذى تقدم ذكره . وفى الغرب المسيحى خلفت الحروب الصليبية طائفة من الأساطير التاريخية . ومنها قصة (الطلسم) وقصة (الكونت روبرت اوف باريس) وغيرهما . وهكذا استحالت قصة الحروب الصليبية فى العالم الإسلامى إلى (سيرة) واستحالت فى العالم الأوروبى إلى (أسطورة) .

وأما فى (الجغرافيا) فلهذه الحروب أثر فيها عند الأوروبيين ربما كان أوسع مدى من أثرها عند المسلمين . أما الأولون فقد ازدادت معلوماتهم الجغرافية عن الشرق ، واكتسبوا لأنفسهم نظرة واسعة إليه ، وذلك منذ أتوا بأنفسهم إلى هذا الشرق لمحاربته . وأما المسلمون فلم ينتقلوا من ديارهم لهذه الغاية . ومع هذا فحسب العصور الصليبية أنها تركت لنا كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموى وكتاب (الإشارات إلى معرفة المزارات) لأبى الحسن الهروى . والأخير أقل أهمية من الأول . وذلك كله فضلا عن المصورات الجغرافية التى عنى بها رجال الدولة الفاطمية ، وصنعوها من النسيج ، وطرزوها بالذهب والحرير ونحو ذلك .

وأما فى (اللغة) فقد أضافت إليها الحروب الصليبية مفردات عدة . منها طائفة كبيرة من الألفاظ الأوروبية ، ومنها طائفة أخرى من الألفاظ التركية . ومن الأولى على سبيل المثال ألفاظ : البرنس ، والمركيس ، والكلوتة ، والفرنجة الخ ومن الثانية على سبيل المثال كذلك ألفاظ : الاسفهسلار ، والأتابك ، والدوادار ، وغير ذلك من أسماء أدوات القتال والسفن الحربية وما إليها .

ونختم الحديث عن الجوانب الطيبة للحروب الصليبية بهذه الحسنة التى تركتها . ونعنى بها هنا (التسامح الدينى) الذى نتج من طول اختلاط الفرنج بالمسلمين فى تلك المحنة . ومن أجله كان الفرق عظيما جداً بين الملك الكامل محمد وفردريك الثانى فى أواخر الحروب الصليبية من جهة ، ونور الدين وصلاح الدين فى أوائل تلك الحروب من جهة ثانية . أما الأولان فكانا

متسامحين إلى درجة لم ترض المسلمين ولا أرضت الكنيسة المسيحية بنوعيها . وأما الآخران فكانا من التحمس الديني ، والتعصب الحقيقي على نحو ما رأينا .

* * *

بقي أن نتحدث عن السيء من الأثر الذي تركته الحروب الصليبية ، وقد ظهر ذلك في الفكر ، والتصوف ، والاقتصاد ، والأخلاق ، ومنها خلق الجهاد نفسه . وحسبنا هنا الإشارة إلى أمثلة طفيفة من كل ذلك . (أما الفكر) فقد أصيب بالشلل أو العطب في بعض جوانبه . فاختفت الفلسفة في تلك العصور أو كادت تختفي ، وتعرضت لبغض المسلمين جميعاً على وجه التقريب . ومن أجل ذلك ارتكب صلاح الدين خطأ عظيما في حياته بقتله (شهاب الدين السهروردي) . وبدلا من أن يشتغل المسلمون بالفلسفة وما إليها اشتغلوا يومئذ بالأحلام ، والرؤى ، ووصف الجنة ونعيمها ، ونسائها وشرابها ، وأتوا في ذلك بأوصاف تبعث على الشهوة المادية الخالصة . ومن العلماء الذين أكثروا القول في ذلك (ابن القيم الجوزية) .

وأما (التصوف) فنجم من رجاله طائفة مشعوذة فهمت من الجهاد أنه انزواء في ثنايا الخوانق ، وأنه كسل وخمول وانصراف إلى المآكل والمشارب ، ولذلك فر الكثيرون من مواطن القتال ورضوا أن يكونوا من الخوالف .

وأما (الاقتصاد) فقد ساءت حالته في العالم الإسلامي لطول أمد الحروب الصليبية ذاتها . ويدلنا على ذلك أن الفرنج كانوا إذا طلبوا هدنة المسلمين جمع صلاح الدين قواده وأمراءه ، فكان من رأي صلاح الدين في كل مرة أن يستمر في الحرب ، وكان من رأي قواده في كل مرة أن يستجيبوا إلى طلب الفرنج ، وذلك بحجة أن البلاد قد خربت وأن الأجناد قد تعبت ، وأن الأقوات قد نفدت وأن الأسعار قد غلت ، حتى أصبح التبن أغلى من التبر ، والشعير إن وجد غالي السعر .

وأما (الأخلاق) فقد انهارت لأسباب شتى . منها سوء الحالة الاقتصادية ومنها حياة الخمول والكسل التي يحياها الصوفية ، ومنها انتشار الغلمان من الأتراك والأكراد والفرنجة ، وكان هؤلاء سبباً في شيوع الشذوذ الجنسي في العالم

الإسلامى ، ومنها انتشار النساء الفرنجيات اللواتى كن سبباً من أسباب الفساد الخلقى الخ .

وأما (الجهاد) فقد قعد عنه الكثيرون من المسلمين ، وسمعنا عن بعض القضاة أنفسهم أن منهم من دخل دين النصرانية هروباً بحياته من شرور الحرب الصليبية . بل رأينا من أمراء المسلمين من استنجد بعضهم على بعض بالفرنجة . وسمعنا عن بعض أعوان صلاح الدين أنهم تعبوا من حمل السلاح ، وتعبت خيولهم من عرك اللجم ، فأظهروا الكسل والتراخى فى مقاتلة العدو ، وضاق صلاح الدين نفسه ذرعاً بهذه الحالة ، فكان القاضى الفاضل يبعث إليه فى أيام المحن برسائل منها قوله :

« يامولانا — أليس الله تعالى قد اطلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهل ولم يستصلح ، ولم يسهل ، ولم يستعمل ، ولم يستخدم فى إقامة دينه ، وإعلاء كلمته ، وتمهيد سلطانه ، وحماية شعاره ، وحفظ قبلة موحديه إلا أنت ؟نعم — وأخرى أهم من الأولى أنه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض ، وأطراف الدنيا ، ومغرب الشمس ، ومؤخر البحر ما تأخر منهم متأخر ، ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد ، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة ، ولا أموال تنفق فيهم ، ولا عصا تسوقهم ، ولا سيف يزعجهم — كنت يامولانا كما قيل أبقاك الله :

ولست بملك هازم لنظيره ولكنك الإسلام للشرك هازم

هذا وليس لك من المسلمين مساعد إلا بدعوة ، ولا مجاهد معك إلا بلسانه ، ولا خارج معك إلا بهمّ ، ولا خارج بين يديك إلا بأجرة ،ولا قانع منك إلا بزيادة . تشترى منهم الخطوات شبراً بذراع ، وذراعاً بباع . تدعوهم إلى الله وكأنما تدعوهم إلى نفسك ، وتسألهم الفريضة وكأنك تكلفهم النافلة ، وتعرض عليهم الجنة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم » الخ .

هذا — ومنذ الحرب العالمية الأخيرة ونحن الشرقيين نصطنع كلمة جديدة فى حياتنا اليومية المعروفة ، وهى كلمة (غنى حرب) . وفى عصر الحروب الصليبية كثر هذا الصنف من الناس . وكانوا من التجار حيناً ومن مستخدمى

الحكومة الإسلامية حيناً آخر . فأثرت فئة على حساب فئة ، وافتقرت طبقة بسبب طبقة . وكان مستخدمو الحكومة أكثر إثراء من غيرهم ، وذلك منذ نيط بهم جمع الحبوب والشعير ونحو ذلك . وفى شعر البوصيرى شكوى ظاهرة ، وسخرية مريرة من هذه الطبقة الأخيرة .

* * *

ومهما يكن من أمر فان هذه المساوىء كلها ليست شيئاً بالقياس إلى الفوائد التى جناها الشرق الإسلامى فى العصور الوسطى ، وهى عصور تميزت بالدين ، وكانت ذات مثالية خلقية وصفات حربية قوية تستحق منا كل إعجاب وتقدير .

عبد اللطيف حمزة

obeikandi.com